الفصل الثالث

في هذا الفصل...نتناول العضو الثالث من هذه الأسرة المباركة هو نبي الله زكريا عليه السلام لنأخذ العبرة والعظة من حياته ..

في هذا الفصل نتناول هذه العناصر ...

كيف تحدث القرآن الكريم عن نبي الله زكريا عليه السلام ؟

الدافع وراء دعائه

البشرى الجميلة

علامة قبول دعائه

الفوائد...

من هذا الذي ذكر اسمه صراحة في القرآن الكريم ؟

من هذا الذي ينادي ويناجي ربه بعيدا عن أعين الناس فيستجاب له في التو واللحظة؟

من هذا الذي عوده ربه كلما دعاه أجابه على الفور ؟

من هذا الذي بشر بولد وسمى وذكرت صفاته قبل أن يخلق ؟

من هذا الذي أُعطى علامة على إجابة دعائه وتلبية ندائه ؟

من هذا الذي رزق بالذرية بعد أن بلغ من العمر عتيا وما زمانه وأين موطنه ومكانه ؟ وكم مدة ذكر في القرآن الكريم وما هي الدروس المستفادة من هذا الحدث العظيم ؟ كل ذلك وما يتعلق به نقدمه لك أيها القارئ الكريم من خلال هذه السطور القليلة القادمة إن شاء الله تعالى... وندعو الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح والفلاح والنجاح .

نبي الله زكريا

إنه نبي الله زكـريا بن دان الذي ينتـهي نسبـه إلى داود عليـه وعلى نبينا أفـضل الصلاة وأتم السلام . نشـأ نبي الله زكريا عليه السلام في أرض مبـاركة ، عرفت منذ القدم بأنـها أرض الأنبيـاء وأرض الشهـداء ، فما مـن نبي من الأنبيـاء إلا وقد خطا بقدميه على هذه البقعة المباركة من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ورسولنا محمد ﷺ ذهب إليها ، واتخذها قبلة له ، فقد ذهب إليها في رحلة الإسراء والمعراج .

إنهـا أرض الفتن والمـلاحم ، أرض البطولة والـفـداء ، أرض الـعطاء ، أرض الشهداء ، أرض السلام أرض أغصان الزيتون ، أرض فلـسطين الحبيبة ، حيث كانت مسقط رأسه في هذه البقعة المباركة .

أمـا الزمـان : كان قبل الميلاد تقـريبا بحوالي ثمانين عامًا وقـيل: خمسين وقيل: سبعين وقـيل: تسعين . . . إلى غيـر ذلك من هذه الأقوال ، والعلم عند الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

نشأ نبي الله زكريا عليه الـسلام كغيره من إخوانه الأنبيـاء على الطهر والعفاف ، وأبى إلا أن يأكل من عمل يده ، مثل إخوانه من الأنبيـاء عليهم السلام ، حيث كان يعمـل نجاراً ويأكل من كـسب يده ، كما كـان داود يأكل من كسـب يده ، وكان لا يجهد نفسه في العمل إجهادا يسـتفضل منه ، ليكون ذخيرة له يخلفه من بعده ، لأن الدنيا لم تكن لـهم دار قرار وهذا أمر بين واضح لكل من تأملـه وتدبره ، ظل يعمل ويكدح ويعبد ربه ، حتى أتاه اليقين ، فلما بلغ مبلغ الشباب تزوج من سيدة فاضلة، لأن الزواج سنة الله في خلقه ، ولكن شاء الله جـلت وعظمت قدرته ، أن يعيش بلا إنجاب ، طيلة فترة شبابه وردحاً كبيراً من شيخوخته ، حتى وصل عمره سبعا وسبعين سنة، والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك بكثير . . .

وفي مرحلة الشـباب كانت زوجـته عاقرًا لا تلد؛ لأن الـعاقر ما لا يحـدث لها تبويض بعد حـدوث الدورة الشهرية فتكون فرصـة إنجابها مستـحيلة وعلى الرغم من التقدم المذهل في الطب في هذا العصر إلا أنه عجز عن جعل العاقر تلد لا عن طريق

الحمل المجهري أو عن طريق طفل الأنابيب أو غيره من طرق الحمل المستحدثة ؛ لأن كل طريقة من هذه الطرق لا بد من أجل تحقيقها الحصول على البويضة ، فإذا كانت البويضة منعدمة فإن فرصة الإنجاب منعدمة ، وامرأة نبي الله زكريا عليه السلام كانت من هذا النوع ، فعاشت عقيماً[١] . . .

إنه يناجي ربه بعيدا عن أعين الناس ، بعيداً عن أسماعهم ، في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ، ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال . رب . بلا واسطة حتى ولا حرف النداء وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء، ولكن المكروب يستريح إلى البث ويحتاج إلى الشكوى ، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة الإنسان ، فيستجيب له . حينما يدعوه ويبث له سبحانه ما يضيق به صدره قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [البقرة] ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ، وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه، فالدعاء في الخفاء له مكانة عالية عند الله عز وجل .

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إن خير الذكر الخفي وخير الذكر يكفي** » .

ونبي الله زكريا عليه السلام يشكو إلى ربه وهن العظم ، وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن، فالعظم هو أصلب ما فيه، وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا ضعف تداعى وتساقطت سائر قوته. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى . .فإنه يوجد في الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً تقريباً ويوجد فيه كذلك مائة وستون عظمة تقريباً . . .

وقيل : إن أقوى عظمة في الجسم البشري عظمة الجمجمة ،من حيث الترتيب الخلقي بالنسبة لتكوين الجسم داخل الرحم فإن العظم يأتي في المرتبة الأولى[٢] .وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا**

(١) البداية والنهاية ، بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب، جـ٤ص٢٣٠٢ ، بتصرف يسير .

﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ـ١٤] .

وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن الكريم من حقيقة في تكوين الجنين ، لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم ، وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام ، وتمام الهيكل العظمي للجنين .

وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ ويتكون العظام من الكالسيوم والحديد وغيرهما من المعادن القوية . . فلولا العظام وقوتها ما نهض الإنسان من على وجه الأرض وما تحرك على ظهرها . . هذا وإن كان نبي الله زكريا عليه السلام شكا إلى ربه وهن العظم شكا إليه أيضاً اشتعال الرأس شيبا ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ وبياض الشعر في الرأس في مرحلة الشباب ، يكون ناتجًا عن ضعف في بصيلات الشعر ونقص صبغة الميلانين المسؤولة عن لون الشعر أما بياضه في حال الكبر يكون ناتجًا عن ضعف عام في الجسد . . وكلمة اشتعل تعني أن البياض شمل الرأس كله فلم يبق في رأسه شعرة واحدة سوداء .

ووهن العظم واشتعال الرأس كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانيه زكريا عليه السلام وشكواه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه ثم يعقب عليه بقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ معترفاً بأن الله جلت عظمة قدرته قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه ، فلم يشق إذا دعاه .

فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في قنوته وقوته ، فما أحوجه الآن في هرمه وكبره أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه ، لأن الله يعلم القلب التقي ويسمع الصوت الخفي .

وقال بعض السلف : إن زكريا عليه السلام قام من الليل بعد أن أنام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب. فقال الله: لبيك لبيك لبيك.

ونأخذ من هذا أن العبد إذا وقف على باب ربه ومولاه ، وأخذ يدعوه في خشوع وذلة وخضوع ، فإن مولاه يستجيب له ، ويرحم عبرته ويجبر كسرته ويزيل كربته ويستجيب دعوته .

كيف تحدث القرآن الكريم
عن نبي الله زكريا عليه السلام؟

قال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٢ـ ٨] .

وقال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٥] .

الدافع وراء دعائه

إن العبد حينما يدعو ربه فإنه يكون له هدف من دعائه ، فقد يدعوه من أجل أن يفرج عنه كربه ، أو يغفر ذنبه ،أو يقضي عنه دينه ، أو يوسع له رزقه أو يشفيه من مرضه ، أو يقضي له حاجة من حوائج الدنيا والآخرة .

ونبي الله زكريا عليه السلام كان له هدف من دعائه لربه بأن يرزقه الولد ، وهو في حال كبره وشيخوخته وضعفه . .فصور حاله ، وقدم رجاءه ، وذكر ما يخشاه ، وعرض ما يطلبه ، فقال كما قصه القرآن الكريم علينا ، فقال تعالى :﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٥، ٦] .

لأن نبي الله زكريا عليه السلام عندما تقدم به الزمن وكبر سنه ، وبانت شيخوخته ، يفكر في أمر النبوة والعلم من بعده ، وواجه خوفه أنه خشى من وراثة عصبته وبقية أهله أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً . . .فسأل الله عز وجل أن يرزقه ولداً يكون من بعده نبياً ، وليس المراد وراثة المال بعد وفاته ، وذلك من عدة وجوه :

الوجه الأول : لأن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد ، وأن يأنف من وراثة عصابته ، ويسأله أن يكون له ولد يحوز ميراثه دونهم هذا وجه. .

والوجه الثاني : أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الأنبياء ، فإنهم أزهد ناس في الدنيا . .

الوجه الثالث : أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه ، أن رسول الله ﷺ قال: **«لا نورث ما تركناه صدقة»**[1] ، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح **«نحن معشر الأنبياء لا نورث»** ، وعلى هذا فيحمل قوله :﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾ على ميراث النبوة ولهذا قال : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ،لقوله :﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ ـ أي في النبوة ـ إذ لو كان في المال لما خصه دون إخوته بذلك ، ولما

(١) تفسير القرطبي جـ٩ ص٤٢٩٨ .

كان في الإخبار بذلك كبير فائدة ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . . .إنه من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها وهذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: **«نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»**[١] .

وهكذا قال أهل العلم من السادة علماء التفسير . .بأن نبي الله يحيى لم يرث من أبيه نبي الله زكريا مالاً ولا حكماً وإنما ورث نبوة وعلماً .

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ .

يقول علماء التاريخ وأهل التأويل : إنه نبي الله زكريا عليه السلام ، كان متزوجاً من إيشاع بنت فاقوذ بن قابيل أخت حنة بنت فاقوذا أم مريم عليها السلام . . على خلاف بين المؤرخين ،والبحث فيه ليس بطائل . . .المهم أنها كانت سيدة فاضلة كريمة مؤمنة تنتمي إلى أسرة عريقة وسلالة الأنبياء حيث ينتهي نسبها إلى داود بن سليمان عليهما السلام. . .

ولكن شاء الله أن تعيش حياتها أو جل حياتها عاقرًا، لم تعقب هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى : فإن نبي الله زكريا عليه السلام في دعائه الكريم . .لم ينس أن يصور أمله في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبره. . .فيقول: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ لا جباراً ، ولا غليظاً ، ولا متبطراً ، ولا طموعاً ، ولا عصياً فلفظة رضى توحي بهذه المعاني . .وغيرها. . .

ذلك دعاء زكريا لربه في ضراعة وخفية ، والألفاظ والمعاني والظلال والإيقاع كلها شارك في تصوير مشهد الدعاء[٢] ، ويقول العلامة القرطبي في معنى رضيا :أي مرضيا في أخلاقه وأفعاله ، وقيل: راضيا بقضائك وقدرك وقيل :رجلاً صالحاً ترضى عنه ومرضياً عنك وعند خلقك. . .تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه[٣].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير جـ٣ ص١٤٢، ١٤٣ .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب جـ٤ص٢٣٠٢ .

(٣) تفسير القرطبي جـ٦ص٤١٢١ .

البشرى الجميلة

﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾ .

فيا لها من بشرى غالية ، ترسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى ، فالرب عزت قدرته ، ينادي عبده من الملأ الأعلى : يا زكريا ، ويعجل له البشرى إنا نبشرك بغلام وهذه البشرى تحمل في طياتها ثلاثة أشياء :

أحدها : إجابة دعائه .

الثاني : إعطاؤه الولد وهو قوة .

الثالث : أن يفرد بتسميته إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة ، وناجاه في خفية وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو ، والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالي من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله ، وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه ، وأجاب دعاءه ، وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء ، فإذا هو يواجه الواقع .

إنه رجل شيخ كبير بلغ من الكبر عتياً ، وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه ، فكيف يا ترى سيكون له غلام ؟ إنها حالة نفسية طبيعية في مثل موقف زكريا النبي الصالح الإنسان ، الذي لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله .

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله ، أن هذا هين على الله سهل، ويذكره بمثل قريب في نفسه ، في خلقه هو وإيجاده بعد أن لم يكن ، وهو مثل لكل حي ، ولكل حي في هذا الوجود ، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى . .لما سأل زكريا عليه السلام هذا السؤال الفذ ، ولازم الباب أتته الإجابة، إنَّ من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة ، ما يطلب للدنيا والحظ شيئاً ، إنما يطلبه للدين والعقيدة فاستجاب الله له :﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ بلغ من شرف هذه البشرى ، ومن شرف

المبشر به أن الله عزت قدرته وتعاظمت إرادته أن تولى تسميته ، ولم يكل تسميته إلى أبيه ، وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى ، ما أظن أن أحداً من البشر حازها سواه ، قال ابن عباس : لم يسم يحيى قبله غيره ، وقال أيضاً: هل تعلم له مثلاً أو شبيهاً يحيى مسمى بصيغة الدوام ، أما ترى إلى أنه مات شهيداً والشهداء عند الله أحياء .

علامة قبول دعائه

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ .

إن نبي الله زكريا عليه السلام عندما بشر بهذا الغلام السعيد ، طلب آية على حمل زوجته ، بعد بشارة الملائكة إياه . .وبعد قوله: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ ؛ لأن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلاً فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء ، وكانت فيه الاستجابة، ويؤدي بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاماً وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطق لسانه إذا سبح ربه ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوي معافى في جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة ، فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه .

والمحراب هو المكان الذي يتعبد فيه ، ويصلي فيه لربه ، وهو أرفع المواضع وأشرف المجالس ، وكانوا في زمانه يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض .

فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ؛ ذلك ليعيشوا في مثل الجو الروحاني الذي يعيش فيه ، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .

ومرت الأيام تتعاقبها الشهور ونبي الله زكريا عليه السلام ينتظر ولده الذي بُشر به، ولما أتم الله نعمته عليه ورزق بهذا المولود ، الذي طال الشوق إليه ، شكر ربه وحمده على نعمه السابغة لقد ولد يحيى ونشأ وترعرع وصار صبيا[1] .

---

(١) مرجع سابق بتصرف يسير .

الفوائد

في هذه السطور نتناول أهم الفوائد التي يمكن لنا أن نستخلصها من دعاء نبي الله زكريا عليه السلام ، من أجل أن تعم الفائدة على كل قارئ كريم ، وهذه الفوائد كما يلي :

الفائدة الأولى : الدعاء وأدبه وهي من جهات :

أحدها : قوله :﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم :٣] وهو يدل على أن أفضل الدعاء ما هذا حاله ،ويؤكد قوله تعالى :﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] ولأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة، وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار، وعمدة الدعاء الانكسار والتبرى عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه.

وثانيها : أن المحتسب أن يذكر في مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما في قوله تعالى:﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤] ثم يذكر كثرة النعم من الله عليه في قوله :﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤] .

وثالثها : أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ [مريم: ٥] .

ورابعها : أن يكون الدعاء بلفظ يا رب .

الفائدة الثانية : ظهور درجات زكريا ويحيى عليهما السلام ، أما زكريا فأمور:

أحدها : نهاية تضرعه في نفسه وانقطاعه إلى الله جل في علاه بالكلية .

ثانيها : إجابة الله دعاءه .

وثالثها : أن الله ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الأمرين معاً .

ورابعها : اعتقال لسانه عن الكلام دون التسبيح .

وخامسها : أنه يجوز للأنبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله :﴿ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ [مريم: ٩] .

الفائدة الثالثة : كونه تعالى قادراً على خلق الولد وإن كان الأبوان في نهاية الشيخوخة رداً على أهل الطبائع ، وهذا يؤدي إلى عدم اليأس من رحمة الله .

الفائدة الرابعة : صحة الاستدلال في الدين لقوله تعالى : ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ [مريم: ٩] أي أوجدتك من العدم لأن قدرة الله لا حدود لها .

الفائدة الخامسة : أن المعدوم ليس بشيء والآية تنص على ذلك فإن قيل: المراد ولم تك شيئاً مذكورا لما في قوله : ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الإنسان: ١] قلنا: الإضمار خلاف الأصل وللخصم أن يقول: الآية تدل على أن الإنسان لم يكن شيئاً ونحن نقول ـ والكلام للإمام الرازي : أن الإنسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها أعراض المخصوصة غير ثابتة في العدم إنما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهي ليست بإنسان فظهر أن الآية لا دلالة فيها على المطلوب .

الفائدة السادسة : أن الله تعالى ذكر هذه القصة في سورة آل عمران وذكرها في هذا الموضع فلنعتبر حالها في الموضعين :

الأول : أنه تعالى بين في هذه السورة أنه دعا ربه ولم يبين الوقت وبينه في آل عمران بقوله : ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً** ﴾ [آل عمران: ٣٧، ٣٨] .

والمعنى أن زكريا عليه السلام لما رأى خارق العادة في حق مريم عليها السلام طمع فيه في حق نفسه فدعا .

الثاني : وهو أن الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادي هو الملائكة ، لقوله تعالى : ﴿ **فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ** ﴾ [آل عمران: ٣٩] وفي هذه السورة ـ سورة مريم ـ الأظهر والله أعلم . أن المنادي بقوله : ﴿ **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ** ﴾ [مريم : ٧] هو الله تعالى .

وقد تبين لنا أنه لا منافاة بين الأمرين لأن الأمر كله من الله عز وجل .

الثالث : أنه قال في آل عمران : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] ، فذكر أولاً كبر نفسه ثم عقر المرأة وهو في هذه السورة قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨] وجوابه أن الواو لا تقتضي الترتيب .

الرابع : ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] وقال في مريم : ﴿ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] .

وجوابه دلت الآيتان على أن المراد ثلاث بلياليهن والله أعلم .